الغزو الهلالى للمغرب

أسبابه ونتائجه

للدكتور حسن على حسن
مدرس التاريخ الإسلامى
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

واجه المغرب الأدنى فى القرن الخامس الهجرى حركة غزو مسلح ، هذه الحركة حملت فى طياتها الكثير من ألوان الدمار والخراب ، وقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ الإسلامى باسم الهجرة الهلالية ، أما القاعدة التى انطلقت منها جموع الهلاليين فهى مصر فى عهد المستنصر بالله الذى تولى الحكم بمصر فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧هـ (١) .

وكان هذا الغزو ذا طابع خاص ، إذ أنه لم يأخذ شكل جيش منظم ، يأتمر لقيادة موحدة ، تسير وفق خطة مرسومة ، وإنما جموع مخربة خرجت لتحقيق أهداف لها تتخلص فى السلب والنهب ، وفى نفس الوقت أرادت السلطة الحاكمة فى مصر تحقيق أهداف معينة لها وهو التخلص من حكم بنى زيرى فى القيروان ، فضلا عن التخلص من هذه الجموع ذاتها إذ أنها كانت مصدر إزعاج وقلق للحكم الفاطمى فى مصر .

وقد نجح الغزو الهلالى فى تحقيق هذه الأهداف ، وربما أصبح هذا النجاح محدودا لو أنه اقتصر على مجرد إسقاط دولة بنى زيرى — وهو أمر

خطير — إلا أن هذا الغزو أخذ أبعادا متعددة شملت العلاقة بين بنى زيرى قبل سقوطها وبين الدولة العباسية ، كما شمل أيضا العلاقة بين كل من الدولة العباسية والبيزنطية والفاطمية ، يضاف إلى ذلك تلك النتائج الخطيرة التى ترتبت على وجود الهلاليين على أرض المغرب وتأثيرهم فى مجريات الأمور طيلة ثلاثة قرون مما يعطى أبعادا جديدة للغزو الهلالى للمغرب .

وفى دراستى هذه سوف أحاول أن أسير مع هذه الحركة منذ أن كانت قبائل متفرقة بموطنها الأصلى فى شبه جزيرة العرب ، إلى أن استقر بها المقام فى أقاليم المغرب المختلفة ، وما صحب ذلك من تطورات وأحداث تكشف طبيعة هذا الغزو والنتائج التى ترتبت عليه .

تشكل حلف الهلاليين من مجموعة من القبائل أشهرها بنو هلال بن عامر ابن صعصعة بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان[٢] ، وبنو سليم وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان[٣] وبنو جشم ابن معاوية بن بكر[٤] وغيرها من القبائل التى انضمت إليها بحكم الجوار وبحكم المصالح المشتركة . وقد أطلق على هذا الحلف اسم الهلاليين وربما كان مرجع ذلك إلى وجود الزعامة — فى هذه الفترة — فى بنى هلال باعتبارها أقوى القبائل ، وربما كان ذلك لسهولة دوران الاسم على الألسنة[٥] .

أما موطن هذه القبائل ، فكان مجـــاله منطقة الحجاز ونجد ، وذلك باختلاف المرعى وأسباب الحياة ، فبنو سليم مواطنهم كما يقول المقريزى : « فى عالية نجد بالقرب من خيبر ومنها حرة بنى سليم وحرة النار بين وادى القرى[٦] » أما بنو هلال ففى جبل غزوان عند الطائف[٧] بينما كانت مساكن بنو جشم بالسروات وهى تلال تفصل بين تهامة ونجد متصلة من البحرين إلى الشام[٨] ، إلا أن هذه المواضع لم تكن وطنا ثابتا لهذه القبائل ، إذ أن ظروفهم الاقتصادية والسياسية كانت تدفعها للتجوال والحركة على أطراف

العراق والشام ، إلا أننا يمكننا القول بأن مواطنهم الأصلية هي الحجاز استنادا إلى ما ذكره البكرى فى معجمه حين قال « الحجاز اثنتا عشر دار : المدينة وخيبر وفدك وذى المروة ودار بلى ودار أشجع ودار مزينة ودار جهينة ودار بعض بنى بكر بن معاوية ودار بعض هوزان وجل سليم وجل هلال(٩) » .

والباحث فى تاريخ هذه الجموع وما اتصفت به من شدة وبأس وميل للعدوان يدرك الآثار المترتبة على هذه الصفات ، فهم فى هذه البيئة الجبلية يتصفون بقوة الشكيمة مع بسطة فى الجسم وصلابة فى العود مع ميل إلى العدوان نتيجة لظروفهم الاقتصادية الصعبة(١٠) .

وقد أدرك هذه الصفات خلفاء الدولة العباسية فأبو جعفر المنصور يوصى ابنه المهدى بقوله « وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل(١١) » .

وهى نظرة ثاقبة خبيرة بأحوال القبائل ، إذ أننا نجد هذه القبائل تشكل قلقا للحكومة المركزية فى بغداد ، وذلك بإغاراتها المتكررة على قوافل التجار ، والحجاج المتجهين إلى مكة مما جعل الخلافة تجرد الحملات للحد من خطورة هؤلاء الأعراب .

وقد ذكر الطبرى وابن الأثير فى أحداث سنة ٢٣٠هـ « وجه الواثق بغا الكبير إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحى المدينة ، وكان سبب ذلك أن بنى سليم كانت تفسد حول المدينة بالشر ، ويأخذون مهما أرادوا من الأسواق بالحجاز بأى سعر أرادوا ، وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناس من بنى كنانة وباهلة فى جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين ، فوجه محمد بن صالح عامل المدينة إليهم حماد بن جرير الطبرى وكان مسلحة لأهل المدينة

فى مائتى فارس وأضاف إليهم جندا غيرهم ، وتبعهم متطوعة ، فسار إليهم حماد ، فلقيهم بالرويثة فاقتتلوا قتالا شديداً، فانهزمت سودان المدينة بالناس وثبت حماد وأصحابه وقريش والأنصار، وقاتلوا قتالا عظيما، فقتل حماد وعامة أصحابه وعدد صالح من قريش والأنصار ، وأخـــذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة ، وانقطع الطريق ، فوجه إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى فى جمع من الجند فقدم المدينة فى شعبان فلقيهم ببعض مياه الحرة من وراء السوارقية قريتهم التى يأوون إليها ، وبها حصون فقتل بغا منهم نحوا من خمسين رجلا وأسر مثلهم وانهزم الباقون ، وأقام بغا بالسوارقية ، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق ، فأتوه متفرقين فجمعهم وترك من يعرف بالفساد وهم زهاء ألف رجل وخلى سبيل الباقين وعاد بالأسرى إلى المدينة فى ذى القعدة سنة ثلاثين فحبسهم ثم سار إلى مكة ، فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق بعد إنقضاء الموسم وعرض على بنى هلال مثل الذى عرض على بنى سليم فأقبلوا وأخذوا من المفسدين نحوا من ثلاثمائة رجل وأطلق الباقين ورجع إلى المدينة فحبسهم(١٢) » .

من النص السابق نستنتج كيف أن بنى سليم شكلوا خطرا على أقوات أهل المدينة . فضلا عن قتلهم لبعض أفراد من بنى كنانة وباهلة ، وموقف الخلافة العباسية من هذا الفساد ، ثم هزيمة الكتيبة المسلحة التى خرجت لمجابهة تلك القبائل المتمردة ومقتل قائد الكتيبة ، مما جعل الخلافة توجه أحد قادتها الكبار وهو بغا الكبير الذى دخل فى معركة طاحنة ضد قبائل بنى سليم أسفرت عن هزيمتهم ، وأسر عدد كبير منهم ، ولم تتم هذه المهمة العسكرية إلا باخضاع بنى هلال والقاء القبض على مثيرى الفتن منهم .

ولم تكن فريضة الحج وما تحمله من معانى التقديس والتقدير ، مانعا لهؤلاء الأعراب من الغدر والفتك بالأبرياء المتجهين لأداء فريضة الحج ،

فنراهم فى سنة ٣٥٥ هـ يهاجمون قوافل الحجاج القادمة من مصر والشام يقول ابن الأثير « وفى هذه السنة — ٣٥٥ هـ — خرجت بنوسليم على الحجاج السائرين من مصر والشام ، وكانوا عالماً كثيراً ومعهم من الأموال ما لاحد عليه لأن كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا من خوفهم من الروم بأموالهم وأهليهم ، وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق ، فأخذوا ومات من الناس فى البرية مالا يحصى ولم يسلم إلا القليل »[١٣] .

وقد تكرر عدوانهم على ألحجاج حتى أن الحج انقطع سنة ٣٦٣ هـ.[١٤] وقد واجهت الخلافة العباسية هذه الاعتداءات المتكررة بالحملات والبعوث التى كانت تحد من هجماتهم وخطورتهم[١٥] .

وقد وجد هؤلاء الأعراب فرصة سانحة فى تحقيق أطماعهم وذلك بالانضمام لحركة القرامطة بالبحرين، فمن طريق هذه الحركة وماتحمله من دعاوى براقة ، تستطيع هذه القبائل تحقيق أغراضها فى السلب والنهب وجمع المال بشتى الوسائل ، ومن ناحية أخرى فقد رحب زعماء القرامطة بهذه القوة الجديدة فى تحقيق أهداف الحركة ومراميها ومن ثم وجدنا تعاوناً صادقاً بين عرب بنى هلال والقرامطة[١٦] .

حتى إذا قامت الدولة الفاطمية فى مصر ، وجدنا المعز ومن بعده ابنه العزيز يدخل فى صراع مسلح ضد القرامطة وأشياعهم من عرب بنى هلال وينجح العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى صد هجماتهم وإجبارهم على العودة إلى مواطنهم الأولى فى البحرين .

وهناك رواية تشير إلى أن من نتائج هذا الصراع نقل قبائل بنى سليم من ميادين القتال الممتدة بين مصر والشام ، وأن العزيز بالله أتى بهم إلى مصر حيث استقروا بالجانب الشرقى من صعيد مصر[١٧] .

وهذه الدعوى من جانب بعض المؤرخين تحتاج إلى مناقشة إذ أن هجرة قبائل بنى سليم وهى تشكل جزءاً كبيراً من الحلف الهلالى ، وفدت إلى مصر منذ وقت مبكر على التاريخ الذى يحدده بعض المؤرخين بعصر العزيز بالله ففى عهد والى مصر الوليد بن رفاعة الفهمى سنة ١٠٩ هـ ، نرى عبيد الله بن الحبحاب يتوجه إلى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ليستأذنه فى نقل الكثير من الأسر القيسية ومنهـــا بنو سليم إلى مصر[١٨] يقول المقريزى « ويقال أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظاً إلا ناس من جديلة وهم فهم وعدوان ، فكتب إلى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ولم أر لهم حظاً إلا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجاً وهى بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام أنت وذاك ، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ومائة أهل بيت من بنى سليم فأنزلهم بلبيس »[١٩] .

وهكذا صار لقبائل بنى سليم موطناً جديداً فى مصر ، وكان لخصوبة مصر وكثرة خيراتها فضلا عن التسهيلات والأموال التى قدمت لقبائل قيس ومنها بنو سليم دافع كبير على قدوم كثير من بيوت بنى ســـليم إلى مصر واتخاذها وطناً جديداً ، يقول المقريزى « وأمرهم أى عبيد الله بن الحبحاب بالزرع ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم وكان الرجل يصيب فى الشهر عشرة دنانير وأكثر ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب وليس عليهم مؤونة فى علف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت فصار ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد وولى

الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر مالت إليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم »[٢٠] .

وهكذا كان دافع العصبية من جانب عبيد الله ومن جاء بعده عاملا قوياً على هجرة قبائل قيس ومعها قبائل سليم حيث سبل الحياة ميسرة ، وهذا دعم استقرار هذه القبائل فى مصر .

يضاف إلى ذلك عامل آخر فى خروج قبائل سليم من البحرين ماذكره القلقشندى فى قلائد الجمان « وكان أعظم قبائل البحرين بنو عقيل هؤلاء ، وبنو تغلب وبنو سليم ، وكان أظهرهم فى الكثرة والعز بنو تغلب ، ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على سليم وأخرجوهم من البحرين فسارت سليم إلى مصر »[٢١] ، فالصراع القبلى الذى حدث بين قبائل سليم وغيرها من القبائل المقيمة فى المنطقة ، وانهزام قبائل سليم ، أجبر بنى سليم على الهجرة إلى مكان آخر ، وبطبيعة الحال كانت مصر هى مقصدهم حيث أبناء قبيلتهم ، وهناك يجدون فى كنفهم العز والمنعة .

أما فكرة نقل العزيز بالله عرب بنى هلال إلى مصر ، فلقد حاول العزيز بالله استمالة زعيم القرامطة ومن معه إليه بالرغم من هزيمة القرامطة إلا أنه لم يفلح فى ذلك ، ومن ثم اكتفى بإرسال قدر من المال على شكل هدية اتقاء لخطرهم ودفعاً لضررهم يقول ابن الأثير « وأما الحسن القرمطى فانه وصل منهزما إلى طبرية فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليحسن إليه ، ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتكين فلم يرجع ، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار ، وجعلها له كل سنة ، فكان يرسل إليه ، وعاد إلى الأحساء »[٢٢].

ومما سبق يمكن القول أن انتقال بنو سليم إلى مصر لم يبدأ فى عهد العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ هـ ـ ٣٨٦ هـ) وإنما تم فى وقت مبكر ابتداء من سنة

١٠٩ هـ في عهـــد الخليفة هشام بن عبد الملك ، ثم توالى مجيء الأمر من بني سليم وانضم إليهم من أبناء عمومتهم بنو هلال وغيرهم . ووجدوا في أرض مصر مرتعاً خصباً ومعاشاً طيباً فاستقروا بها وزادت أعـــدادهم بمرور الأيام .

فاذا ماتركنا جانب العلاقات بين مصر والعرب الهلالية ، وانتقلنا إلى الجانب الآخر وأعني به العلاقة بين مصر وإفريقية خلال الحكم للفاطمي لوجدنا تبعية إقليم إفريقية لمصر منذ اللحظات الأولى التي انتقل فيها المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ بعد أن تم فتحها على يد قائده جوهر الصقلي من قبل .

وقد حاول الفاطميون قبل أن يتركوا إفريقية أن يولوا عليها حلفاء مخاصين لدعوتهم وحكمهم وقد وقع اختيارهم على قبيلة صنهاجة ذات العدد الوفير وكنوع من المكافأة على خدماتهم الجليلة التي قدموها للدولة « أعطى المعز المغرب لصنهاجة لأنها لم تكن مجرد قبيلة وإنما كانت شعباً عظيما يتألف من بطون بلغت السبعين ، حيث كانت كتامة فرعا منها وهي قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه وتنقسم قسمين عظيمين أحدهما قريب من الساحل والآخر يسيطر على جنوب المغرب حتى السودان . . . يضاف إلى ذلك أن صنهاجة أظهرت إخلاصاً أيام نشأة دولة الفاطميين في المغرب ، إذ كان معظمها من الحضر أو مايعرف من البرانس في عداء ضد البتر من قبيلة زناتة أنصار الأمويين بالأندلس أعداء الفاطميين ، وقد وقع اختيار المعز على أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي أظهر إخلاصه في الساعات المخيفة وقت ثورة يزيد بن مخلد كما أثبت ولائه في حملاته في المغـــرب مع جوهر »[٢٢] .

وقد وقع الاختيار على أبي الفتوح يوسف بن بلكين بن زيري الذي تولى

السلطة فى إفريقية سنة ٣٦٢هـ [٢٤]، وبالرغم من ثقة المعز فى واليه الجديد على إفريقية ، إلا أنه قيد حركته وحد من اختصاصاته خشية استقلاله بأفريقية وخاصة أن الظروف مهيئة لهذا الاستقلال من بعد بين القاهرة والقيروان فضلا عن كراهية سكان إفريقية لمذهب الشيعة ، ولذا وجدنا الخليفة الفاطمى يوليه ولاية الحرب فقط ، أما القضاء والخراج فكانا يتبعان مباشرة للخليفة الفاطمى ، كذلك جعل إقليمى طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين عن حكم بنى زيرى ويتبعان الخلافة الفاطمية فى مصر[٢٥] .

إلا أن هذه الإجراءات من جانب الخلافة الفاطمية لم تمنع المنصور ابن يوسف بن بلكين الذى تولى الحكم سنة ٣٧٣هـ أن يصرح على الملأ بين الوفود التى أقبلت لتهنئته بتوليه مقاليد الأمور ، معلناً أن وصوله إلى مقعد الحكم إنما هو بفضل قوته وقوة آبائه وأجداده ، وليس للفاطميين فضل فى ذلك يقول ابن الأثير « وأتاه أهل القيروان وسائر البلاد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالولاية ، فأحسن إلى الناس وقال لهم : إن أبى يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب »[٢٦] ولا شك أن مثل هذه التصريحات كانت تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمى فى القاهرة .

وقد حاول الخليفة العزيز بالله أن يؤلب بعض قبائل البربر على حكم بنى زيرى وقد تمثل ذلك فى ثورة أبى الفهم الخراسانى واستعانته بقبائل كتامة إلا أن أبا الفتوح المنصور استطاع القضاء على الثورة وتأديب قبائل كتامة[٢٧] .

أما الخليفة الحاكم بالله الفاطمى الذى تولى فى ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦[٢٨]

فقد حاول أن يفتح صفحة جديدة من العلاقات الودية بين القاهرة وحكام القيروان ، فنراه عقب توليه الخلافة يرسل سجلين إلى أبي مناد باديس ابن يوسف ويلقبه فى أحدهما بنصير دولة الحاكم يقول المقريزى « وفيها — سنة ٣٨٧ هـ — كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعى على بن عبد الله سجلين لأبى مناد باديس بن يوسف بن زيرى أحدهما بولايته المغرب وتلقيبه نصير دولة الحاكم والثانى بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه العهد على بنى مناد ، فأنزل وأكرم وأخذ العهد على جميع قبائل صنهاجة وعمومهم بالبيعة للحاكم فى جمادى الآخرة ثم عاد ، فقدم إلى القاهرة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل وثياب وخيول »(٢٩) .

ولم يمض على هذا السجل سوى ثلاث سنوات حتى وجدنا الحاكم الخليفة الفاطمى يأذن لواليه على برقة وهو يانس الصقلى باستلام طرابلس من واليها الذى خان سيده باديس بن يوسف ولجأ إلى الحاكم فى مصر سنة ٣٩٠ هـ(٣٠) ، ولا شك أن هذا عمل عدائى من جانب السلطة الحاكمة فى مصر ، ولم يقف باديس مكتوف اليدين بل بادر وأرسل قواته التى استطاعت أن تسترد المدينة وتهزم جيش يانس وتقتله(٣١) .

وقد دخلت العلاقة الزيرية الفاطمية مرحلة جديدة حين تولى المعز ابن باديس السلطة خلفاً لوالده فى ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ(٣٢) ، وقد أشار ابن عذارى إلى كيفية مبايعته بقوله « كانت ولايته بالمهدية فى يوم السبت المذكور سنة ٤٠٦ هـ وسنه ثمانى سنين وأربعة أشهر وولايته بالمهدية وبيعته بها لتسع بقين من ذى الحجة ، ذلك لما وصل الخبر بوفاة أبيه والسيدة أم ملال بالمهدية ، خرج إليها منصور بن رشيق وقاضى القيروان والمنصورية وشيوخها ، ومن كان بها من الصنهاجيين ، فعزوها فى أخيها ، وخرج المعز

بالبنود والطبول ، فنزل إليه الناس يهنونه جميعاً ويبايعوه وهنوه ، وعزوه ، وابتهلوا بالدعاء له وعاد إلى قصره ، ودخل الناس يهنئون السيدة بولايته ، فصرف أهل القيروان والمنصورية وبقى المعز بالمهدية يركب فى كل يوم ، ويعود إلى قبة السلام »[٣٣] .

ومن النص السابق نلمح صغر سن المعز إذ أنه صبى صغير لم يتجاوز الثمانى سنوات ، وظهور والدته على مسرح الأحداث وتهنئة الرعية لها بولاية ابنها ، ولا شك أن صغر سن المعز وقلة تجاربه وخبرته بشئون الحكم أو كما يقول ابن خلدون « وكان لعهد ولايته غلاماً يفعة ابن ثمان سنين فلم يكن مجرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة »[٣٤] .

لا شك أن هذه الصفات كانت عاملا هاماً فى وقوعه تحت تأثير مربيه المالكى المذهب الذى دأب على تلقين الغلام الصغير تعاليم المذهب المالكى فى سرية تامة وبعيداً عن أعين رجال المذهب الشيعى ، وقد أشار إلى ذلك صراحة ابن عذارى بقوله « ربى فى حجر وزيره أبى الحسن بن أبى الرجال وكان ورعاً زاهداً . وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدى لها ، فحرض ابن أبى الرجال المعز بن باديس وأدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان »[٣٥] ، فإذا ماوضعنا فى الاعتبار مراحل العلاقة الزيرية الفاطمية قبل تولى المعز بن باديس وكثرة المؤامرات التى دبرها الفاطميون ضد الدولة الزيرية ، فضلا عن ميل الكثير من عامة الرعية للمذهب المالكى وكتمانه ذلك خوفاً من بطش رجال الحكم ، لوجدنا أن الظروف مهيأة لاتخاذ موقف جديد تجاه الشيعة فى إفريقية .

ولم يكن هذا الموقف سوى مذبحة دموية قام بها العامة ضد الشيعة فى مختلف مدن الدولة الزيرية وراح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب المعتنقين

المذهب الشيعى وكان ذلك فى عام ٤٠٧ هـ(٣٦) ، وبالنظر إلى الأسباب المباشرة لهذه المذبحة نجد اختلافاً بين المؤرخين ، فابن عذارى يعلل ذلك بدفاع أهل السنة عن المعز بن باديس حين أظهر ميله للشيخين أبى بكر وعمر واضطرارهم لمحاربة الشيعة والفتك بهم « فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى فى زينته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فقال عند ذلك أبو بكر وعمر ، فسمعته الشيعة التى كانت فى عسكره فبادروا إليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف فى الشيعة فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف فسمى ذلك الموضع بركة الدم »(٣٧) ، بينما نرى ابن الأثير يضيف إلى العامل السابق عاملا آخر هو رغبة عامل القيروان فى إحداث فتنة بين أفراد الشعب انتقاماً من المعز بن باديس وإظهاره بمظهر المتخاذل عن نصرة المذهب الشيعى وأتباعه أمام الخلفاء الفاطميين أصحاب الحكم الشرعى للبلاد ، ودافعه فى ذلك ما بلغه من رغبة المعز بن باديس فى عزله من منصبه « فى هذه السنة — سنة ٤٠٧هـ — فى المحرم قتلت الشيعة بجميع بلاد أفريقية وكان سبب ذلك أن المعز بن باديس ركب ومشى فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : رضى الله عن أبى بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى من القيروان وهو مكان تجتمع به الشيعة فقتلوا منهم ، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعا فى النهب ، وانبسطت أيدى العامة فى الشيعة وأغراهم عامل القيروان وحرضهم وسبب ذلك أنه قد أصلح أمور البلد ، فبلغه أن المعز باديس يريد عزله فاراد فساده ، فقتل من الشيعة خلق كثير ، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم وقتلوا فى جميع أفريقية »(٣٨) ، ويذهب ابن أبى دينار فى تعليل ذلك إلى إظهار الشيعة لأفكارهم وآرائهم التى لا تتفق مع آراء أهل السنة مما دفع العامة إلى الفتك بهم يقول ابن أبى دينار « ولما استقر — أى المعز بن باديس — بصبرة خرجت طائفة من القيروان وقتلوا جماعة من الشيعة لأنهم كانوا

يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نساءهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان من أجل النهب والقتل ، ولجأت طائفة منهم بالجامع فى المهدية فقتلوا فيه وكان لا يرى بالقيروان أحد منهم فى الطريق إلا ضرب ضربا عنيفا وربما قتل وأحرق »(٣٩) .

وباستعراض الدوافع المختلفة وراء هذه الحادثة يمكننا أن نقول أن كراهية الغالبية العظمى من الشعب المتمسكين بالمذهب المالكى لأفراد الشيعة وهم قلة بالقياس لغالبية الرعية ، وأن هذه الغالبية لم تكن لتستطيع إعلان سخطها أمام حكام الدولة الزيرية التابعين للخلفاء الفاطميين ، فلما تولى المعز ابن باديس وهو صغير السن وخضوعه لمؤدبه المالكى ، وإظهار المعز ميله للمذهب السنى عرضا ، كل هذا أطلق العنان لتلك الجموع الساخطة للانتقام فإذا أضفنا إلى ذلك اندساس كثير من الجند بين جموع الشعب رغبة فى السلب والنهب وتراخى عامل القيروان عن اتخاذ موقف ضد هذه الجموع الثائرة ، كل هذا أدى إلى تلك المذبحة .

وما لبثت أخبارها أن انتشرت فى المدن الأخرى وخرج الناس يقتلون هنا وهناك ، وقد بلغ تعطش العامة إلى الدم أنهم كانوا يفتكون ببعض الناس دون التثبت من شيعيتهم يقول الصفاقسى « وتعدت العامة ذلك إلى جماعة من أهل السنة ظنا أنهم من غيرهم فلقد حكى أن العامة جاءت متعلقة برجل اتهموه برأيهم فروا به على شيخ من العامة فسألهم عن تعلقهم به فقالوا نسير به إلى الشيخ أبى على بن خلدون فينظر ما يأمرنا به ، فقال لهم الشيخ العامى اقتلوه الآن فان كان رافضيا أصبتم وإن كان سنيا عجلتم بروحه إلى الجنة »(٤٠) .

ويبدو أن المعز بن باديس خشى مغبة ترك العامة فى ثورتها العارمة تدمر وتقتل فضلا عن استغاثة الكثير من الأسر الشيعية به لحمايتها من القتل ، ومن ناحية أخرى فمازال المعز بن باديس من الناحية الرسمية تابعا للخلافة

الفاطمية فى مصر ، ومنصبه يحتم عليه حماية المذهب الشيعى ، لذا نراه يحاول وضع حد لهذه المذبحة وذلك بقتل زعيم أهل السنة لعل ذلك يكون رادعا وصدا لهـذه الجموع المتعطشة للدماء يقول الصفاقسى « فرعب المعز منهم ورأى كسر شوكتهم ، فدبر قتل زعيم أهل السنة وشيخ هذه الدعوة يعنى حسن ابن خلدون ، فلما كان يوم الخميس ثانى عشر شوال من السنة المذكورة أتى عامل القيروان مع الشرطة وخيل ورجال إلى مسجد الشيخ أبى على حسن ابن خلدون البلوى بعد صلاة العصر ... فدخلوا المسجد على الشيخ وهو فى مسجده ومعه جماعة من الناس فقتلوا أبا محمد الفريانى الفقيه ... ظانين أنه أبو على فلما عرفوا مالوا على أبى على بسكاكينهم وجردوا جماعة ممن كان بالمسجد فحمل أبو على إلى داره وقد وقع فيه ثلاث جراحات إحداها فى صدغه أخذت إلى قفاه واثنتان فى جانبه الأيسر أنفذتا مقاتله وتوفى فى داره بعد العشاء »[1] فبهذا التصرف وضع حدا للفوضى التى عمت البلاد ، ومن ناحية أخرى لم تكن الظروف مهيأة بعد لقطع العلاقات رسميا بينه وبين الخلافة الفاطمية فى مصر ، ومن ثم كان عليه التظاهر بحماية الشيعة وذلك بالقصاص من كبير أهل السنة والمتزعم لحركة الاضطهاد .

ويبدو أن الظروف الداخلية التى واجهها المعز بن باديس كانت مانعا له من إعلان انفصاله الرسمى عن طاعة الفاطميين ، وبعبارة أخرى كانت الأوضاع الداخلية سببا فى تأجيل إعلان انفصاله الرسمى .

وهذه الأوضاع تتمثل فى بقايا الشيعة بالبلاد والتى كانت تمثل خطرا قائما باعتبارهم جواسيس للخلفاء الفاطميين ، ويبدو أنهم كانوا يشكلون قوة عسكرية حتى أنهم استطاعوا فى سنة ٤٢٣ هـ الاستيلاء على منطقة نفطة يقول ابن الاثير « وفيها — أى سنة ٤٢٣ هـ اجتمع ناس كثير من الشيعة بأفريقية وساروا إلى أعمال نفطة ، فاستولوا على بلد منها وسكنوه ، فجرد إليهم المعز

عسكرا فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوهم أجمعين »[٤٢] ومما سبق نستنتج أن المذبحة الدامية التي حلت بالشيعة لم تحل دون استردادهم لقوتهم فضلا عن استيلائهم على منطقة من مناطق الدولة .

والوضع الثاني يتمثل في حروب زناتة ضد صنهاجة أي ضد السلطة الحاكمة مما سبب اضطرابا وقلقا في أوضاع الدولة ، وقد تكررت هذه الاعتداءات مما جعلت السلطة الحاكمة مضطرة لمواجهتها وتعقبها والقضاء عليها ومن ذلك ما حدث في سنة ٤١٥ هـ يقول بن الأثير « في هذه السنة خرج بإفريقية جمع كثير من زناتة فقطعوا الطريق وأفسدوا بقسطيلية ونفزاوة وأغاروا وغنموا واشتدت شوكتهم وكثر جمعهم، فسير إليهم المعز ابن باديس جيشا جريدة ، وأمرهم أن يجدوا السير ويسبقوا أخبارهم ففعلوا ذلك وكتموا أخبارهم وطووا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب فوضعوا فيهم السيف فقتل منهم خلق كثير »[٤٣] وتكرر نفس العدوان من زناتة في أعوام ٤٢٠ هـ ، ٤٢٧ هـ ، ٤٢٨ هـ[٤٤] .

والوضع الثالث يتمثل في خطر الروم وأسطولهم في البحر المتوسط والذى كان يهدد أملاك بنى زيرى مما جعل بنى زيرى يوجهون اهتمامهم لحماية ممتلكاتهم وذلك ببناء السفن وتزويدها بمختلف آلات القتال لمواجهة هذه الأخطار وقد تمثل ذلك في عدوان الروم على جزيرة قلورية وامتلاكها يقول ابن الأثير « في هذه السنة — سنة ٤١٦هـ — خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية وهى مجاورة لجزيرة صقلية ، وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصـــول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك ، فبلغ ذلك المعز بن باديس ، فجهز أسطولا كبيرا أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيرا وتطوع جمع كثير بالجهاد ... »[٤٥] إلا أن هـذا الأسطول لم يحقق نجاحا إذ أنه تحطم قبل أن يصل إلى هدفه بسبب رياح شديدة وعواصف مدمرة .

أما الوضع الرابع فيتمثل فى خوف المعز بن باديس من قوة الخلافة الفاطمية ، وربما حاولت ارسال جيوش من قبلها للقضاء على سلطته إذا ما حاول خلع الطاعة رسميا وظروفه الداخلية غير مستقرة ولا تساعده على القتال فى أكثر من جبهة ، لذا نراه يبقى أسماءهم « منقوشة على العملة ، وعلى البنود وهو سلوك مناقض لميله الشخصى مما دفع أحد العلماء للاستفسار منه عن هذا التضارب فأجابه معتذرا بخوفه على الحجاج المغاربة المارين بأرض مصر وخشية الاعتداء عليهم من جانب الفاطميين إذا ما هو حاول إزالة أسمائهم من العملة والبنود يقول الصفاقسى ، ولم يبق المعز من آثار بنى عبيد الا أسماءهم على السكة والبنود ، فسأله أبو عمران الفاسى على ذلك فاعتذر بالخوف على الحجاج لبيت الله الحرام والمسافرين ، يعنى لو أزال ذلك من السكة لأدى إلى اضرار بنى عبيد ملوك مصر بالحجاج الواردين عليهم من المغرب والمسافرين إما بقتل وأخذ مال أو منع الطريق أو غير ذلك »(٤٦) .

هذه الأوضاع المجتمعة حملت على تأجيل اعلان الانفصال الرسمى عن الخلافة الفاطمية فى مصر .

ومن ناحية أخرى ما موقف الخلافة الفاطمية من هذه الأحداث والتغييرات التى حلت بإفريقية والتى تصاعدت حتى انتهت إلى هذه المذبحة التى راح ضحيتها الآلاف من أتباع الدعوة الشيعية ؟ ؟

أعتقد أن موقف المعز بن باديس وعدم خلعه طاعة الفاطميين رسميا لعب دورا كبيرا فى موقف الفاطميين ، وبعبارة أخرى رضى الفاطميون من المعز بن باديس بابقاء أسمائهم على العملة والبنود ، ولم يحاولوا بشكل رسمى محاربة الزيريين ، وربما كانت الأزمات الاقتصادية التى كانت تحل بمصر من الحين إلى الحين مانعا قويا فى تجهيز القوات العسكرية لإرجاع الأوضاع فى إفريقية إلى ما كانت عليه ، وربما كان من قبيل المصادفة أن

تقع المذبحة فى مدن الدولة الزيرية ضد الشيعة سنة ٤٠٧ هـ ويعقبها فى عام ٤٠٨ هـ أزمة اقتصادية بمصر إذ زاد النيل زيادة كبيرة مما أدى إلى غرق كثير من الضياع حتى أن الماء دخل القاهرة مما اضطر معه السكان إلى الفرار منه[٤٧] ولاشك أن مثل هذه الأزمات الفعلية تلعب دورها فى شغل السلطة الحاكمة ، كذلك كانت هناك أزمة اقتصادية فى عامى سنة ٤١٤ هـ ، سنة ٤١٥ هـ ناتجة عن نقص مياه النيل مما أسفر عنه قلة الأقوات وارتفاع فى الأسعار وقد وصفها المقريزى بقوله « ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها وعزت الأقوات وقلت البهائم حتى بيع الرأس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف ، فى ظواهر البلد واضطرب الناس ، وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار ، فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد الزعماء[٤٨] ، ولاشك أن هذه الأزمات المتكررة كانت مانعاً من التفكير فى تجهيز حملة ومايصحب ذلك من نفقات وأموال ، يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر بأحداث المشرق ومواجهة الخلافة العباسية والأوضاع المتقلبة فى الشام مما جعل هذه المنطقة هى الشغل الشاغل للخلفاء الفاطميين .

ومن ثم وجدنا العلاقة بين الفاطميين والزيريين تأخذ طابعها المعتاد من تبادل الهدايا والرسائل[٤٩] يقول المقريزى « وفى سنة عشر وأربعمائة سير الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن الزيد إلى شرف الدولة الحاكمية أبى تميم المعز ابن نصير الدولة أبى مناد باديس ومعه سيف مكلل بنفيس الجوهر وخلعة من لباس ، فقدم المنصورية لست بقين من صفر سنة إحدى عشرة وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقرأ عليه سجلا عظيما فكانت أيام فرح ، ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبى كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علماً منسوجة بالذهب فخلع على أبى القاسم ومحمد وحملا وطيف بهما فى القيروان والأعلام المذكورة بين أيديهما[٥٠] » .

وقد تمادى الحاكم فى استرضاء ابن باديس ورعيته فعين فقيهين مالكيين لتدريس المذهب المالكى وهو يخالف مذهب الدولة الرسمى يقول أبو المحاسن « ولما أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله ، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل فى كمه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك فى الجامع »(٥١) ويبدو أن الخلافة الفاطمية أدركت أن هذا التصرف لم يجد صدى طيباً لدى ابن باديس فضلا عن أنه ضد مذهب الدولة ومعتقداتها الشيعية لذا نرى الحاكم يأمر بقتلهما(٥٢) .

وقد اقتفى الظاهر الفاطمى سياسة والده الحاكم فى مصانعة ابن باديس أو بعبارة ابن خلدون « أغضى عنه الظاهر »(٥٣) وسارت العلاقات فى مسارها التقليدى من تبادل الهدايا والرسائل(٥٤) يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة — سنة ٤١٤ هـ — وصل محمد بن عبد العزيز من قبل الظاهر أمير مصر بتشريف عظيم لشرف الدولة ، فقرئت به سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالا ولا أعلى مقالا ، وزاده لقبا إلى لقبه فسماه شرف الدولة وعضدها وبشره بمولودين ولدا له : أبو الطاهر وعبد الله أبو محمد وبعث إليه بعد ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج حلية وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ، ما دخل أفريقية مثلها قط وعشرين بندا مذهبة مفضضة ، فلقيها شرف الدولة وعضدها أجل لقاء وأعطاها حقها من الإكرام والاعتناء ، وقرئت السجلات بين يديه ، ثم قرئت بجامع القيروان وأمر بنسخها وأنفذت إلى الآفاق ، فكان لها من السرور ما لا يوصف ، وبعد ذلك فى هذه السنة ، وصله سجل آخر بزيادة لقب آخر تشريفاً لشرف الدولة وأمر أن يكاتب « من الأمير شرف الدولة وعضدها » ويخاطب مثل ذلك ، فلقيه أحسن لقاء وخلع عليه وحمله ، وجرت المكاتبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل »(٥٥) .

إلا أن هذه العلاقات التقليدية بين المعز بن باديس وخلفاء الفاطميين لم

تمنع من اتخاذ خطوة أكثر جرأة فى سبيل الاستقلال التام عن الفاطميين، وخاصة إذا كان هناك سلوك عملى من جانب الرعية فى نبذ المذهب الشيعى والتمسك بالمذهب المالكى ، وقد تمثل ذلك السلوك فى مقاطعة أهل القيروان صلاة الجمعة بالمساجد باعتبارها تمثل المذهب الرسمى للدولة وهو المذهب الشيعى ، يقول ابن عذارى « لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بأفريقية ويذكرون أسماءهم على المنابر وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم ، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سراً : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ثم ينصرف فيصلى ظهراً أربعاً إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فتعطلت الجمعة دهراً »(٥٦) .

هذا المسلك العملى من أهل القيروان وغيرها من مدن إفريقية دفع المعز ابن باديس للتفكير عملياً فى اتخاذ خطوة أكثر ارتباطاً بالسلطة السنية المتمثلة فى الخلافة العباسية ببغداد تقرباً لرعيته وتحقيقاً لميوله السنية .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ إقامة الدعوة العباسية على منابر القيروان وغيرها من مدن الدولة الزيرية ، فبعضهم يذكر أن إقامة الخطبة للدولة العباسية تم فى سنة ٤٢٢ هـ(٥٧) وبعضهم أرخ ذلك بعام سنة ٤٣٥هـ(٥٨) بينما أشار ابن خلدون إلى أن ذلك تم فى سنة ٤٣٧ هـ(٥٩) . ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى خلط بعض المؤرخين بين حادثتين منفردتين الأولى الاتصال بالخلافة العباسية وإقامة الخطبة لها وأعتقد أن هذا تم فى سنة ٤٣٥هـ استناداً لما رواه بعض المؤرخين والحادث الثانى هو لعن الفاطميين واستبدال العملة وهو كل مايتعلق بالخلافة الفاطمية وهذا بدأ فى سنة ٤٤٠ هـ(٦٠) .

وسياسة التدرج هذه هى التى سار عليها المعز بن باديس منذ أن تولى الحكم ، فلقد أوقع بالشيعة فى مذبحة كبيرة سنة ٤٠٧هـ ثم بدأ يتعقب الشيعة

فى كل مكان ، ولم يخلع طاعة الفاطميين مرة واحدة متعللا بخوفه على الحجاج المغاربة من بطش الفاطميين بينما كان يراسل سراً الخلافة العباسية(٦١) وأثمرت هذه الاتصالات فى عام سنة ٤٣٥ هـ ، الخطبة للخليفة العباسى دون التعرض للخلفاء الفاطميين بالسب أو اللعن .

وحتى يستكمل مظاهر الارتباط الرسمى بينه وبين الخلافة العباسية وجه رسولا من قبله إلى بغداد ليأتيه بالعهد واللواء ، ورحبت الخلافة العباسية بهذه الخطوة الجديدة باعتبارها موجهة أساساً لأعدائها الفاطميين فى مصر فضلا عن استرجاع الخلافة العباسية بعض مظاهر السيادة الإسمية على مناطق انفصلت منذ فترة بعيدة ، وأرسل العهد واللواء مع مبعوث الخلافة العباسية وهو غالب الشيرازى إلا أن الحظ لم يحالفه فوقع فى قبضة الروم أصدقاء الفاطميين فى مصر ، ولم تنجح المحاولات التى بذلت فى الإفراج عن المبعوث العباسى ، وأرسل إلى القاهرة حيث أحرق العهد واللواء ، وطيف به فى شوارع القاهرة يقول المقريزى « وجهزت الخلع على يد رسول يقول له أبو غالب الشيرزى ومعه العهد واللواء الأسود فمر ببلاد الروم ليعدى منها إلى أفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم وبلغ ذلك المعز بن باديس فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم فى أمره فلم يجبه رعاية لحق المستنصر ... واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة فبعث معه رسول القائم بأمر الله على يده ، فدخل إلى القاهرة على جمل وأحرق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين »(٦٢) .

ولا شك أن ماحدث برسول الدولة العباسية لبنى زيرى فى إفريقية ، ونجاح الفاطميين فى التنكيل به أغضب ولاة الأمر فى كل من بغـــداد والقيروان ، ومن ثم وجدنا الخلافة العباسية تعلن سلاح التشكيك فى نسب الفاطميين وتعقد المجالس والمؤتمرات للطعن فى نسبهم ونفى نسبتهم إلى إلى الإمام على بن أبى طالب وقد أشار ابن الأثير إلى أن هذا التشهير حدث

فى سنة ٤٠٢ هـ « فى هذه السنة كتب ببغداد محضر يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر »(٦٣) إلا أن المقريزى يذكر ذلك فى تاريخ متأخر بين سنتى سنة ٤٤٣ هـ ، سنة ٤٤٤ هـ ويذكر صراحة أن ذلك حدث من الخلافة العباسية رداً على ماصنعته برسولها إلى بنى زيرى فى القيروان يقول المقريزى « فيها — سنة ٤٤٤ هـ — كتبت ببغداد محاضر تتضمن القدح فى نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الالتحاق بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وجمع سائر أعيان الفقهاء ببغداد وأشرافها وقضاتها وعروا نسبهم فى الديصانية من المجوس ، وسيرت المحاضر إلى البلاد وشنع عليهم تشنيع كبير وسبب ذلك الغضب ماعمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس ، فإنه لما شهر بالقاهرة على جمل مقلوب ، وكتاب العقد فى عنقه والهدية بين يديه، ثم أحرقت الخلع والتقليد »(٦٤) ولايمنع تكرار حادث التشهير إذ أن فيه متنفساً للعباسيين وهجوماً شديداً على الفاطميين خلفاء مصر .

أما بنو زيرى فى القيروان فقد اتخذوا موقفاً حاداً وذلك بلعن الفاطميين على المنابر والدعاء للعباسيين ، يقول ابن عذارى « وأمر المعز بلعنهم فى الخطب ولعنهم ، كان عيد الاضحى ، أمر الخطيب أن يسب بنى عبيد فقال : اللهم والعن الفسقة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان المخالفين لأمرك والمناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، المبدلين لكتابك ، اللهم والعنهم لعناً وبيلا وأخزهم خزياً عريضاً طويلا ، اللهم وأن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس المنصور القائم لدينك والناصر لسنة نبيك والرافع للواء أوليائك يقول مصدقاً لكتابك وتابعاً لأمرك ، مدافعاً لمن غير الدين ، وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين « يأأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون » هكذا ذكر باسقاط ، قل « وآخرها : قال الأمير أبو تميم المعز بن باديس أن يسبهم على منبر القيروان بأشنع من هذا السب فلما كان فى الجمعة الأخرى أبلغ ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين(٦٥) .

ولا شك أن لعن الفاطميين على منابر إفريقية يعد بمثابة قطع للعلاقات بين بنى زيرى والفاطميين ، وإعلان صريح بكراهية بنى زيرى للفاطميين.

واتبع المعز بن باديس لعنهم على المنابر بسلسلة من الإجراءات لدعم استقلاله وارتباطه بالخلافة العباسية وفى نفس الوقت إزالة كل ما يتعلق بالمذهب الشيعى ، فبدأ بهدم دار الاسماعيلية باعتبارها مركزاً لنشر الدعوة الفاطمية بالبلاد[٦٦] ، ثم أمر بتغيير ملابس رجال الدولة وصبغها باللون الأسود رمز الارتباط بالعباسيين ، يقول ابن عذارى « أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين وأخرج لهم ثياباً بيضاً من فندق الكتان وأمرهم أن يصبغوها سوداً فصبغوها بأحلك السواد ، وجمع الخياطين فقطعوها أثواباً ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطيبى القيروان وجمع المؤذنين وكساهم ذلك السواد ، ونزلوا بأجمعهم ، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، ثم صعد الخطيب المنبر ، وخطب فيها خطبة أتى فيها على جميع الأمر ، بأجزل لفظ وأحسن معنى ثم دعا لأبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسى ودعا السلطان المعز بن باديس ولولده أبى الطاهر تميم ولى عهده من بعده ثم أخزى بنى عبيد الشيعة ولعنهم »[٦٧] ، وفى نفس الوقت غير البنود والأعلام وجعلها سوداء اللون .

أما العملة وكانت مظهراً من مظاهر ارتباطه الوثيق بالفاطميين ، فأمر بتغييرها وإزالة أسماء بنى عبيد ونقش عليها : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وفى الوجه الثانى : لا إله إلا الله محمد رسول الله[٦٨] وأمر بسبك جميع النقود وتحويلها إلى العملة الجديدة وهدد بالعقاب الشديد كل من وجدت لديه عملة منقوش عليها أسماء الفاطميين[٦٩] .

وقد دعم موقف بنى زيرى فى القيروان مساندة إخوانهم فى برقة وكانوا

يتبعون مباشرة لحكم الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، إذ أعان أميرها جبارة ابن مختار العربى تأييده لموقف المعز بن باديس فخلعوا طاعة الفاطميين ولعنوهم على منابرهم ، يقول ابن عذارى « وصلت إلى القيروان مكاتبة من الأمير جبارة بن مختار العربى من برقة بالسمع والطاعة للمعز بن باديس وأخبر أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التى كان يدعى عليها للعبيدية وأحرقوا راياتهم وتبرءوا منهم ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العباسى »(٧٠) ، ولا شك أن هذا الموقف دعم للدولة الزيرية وفى نفس الوقت تهديد مباشر للدولة الفاطمية وحدودها الغربية .

وقد حاولت الخلافة الفاطمية من جانبها إرجاع العلاقات إلى ما كانت عليه تارة بالترغيب وتارة بالتهديد(٧١) ، إلا أنها فشلت فى ذلك ، وساعد على تطور الأحداث ظهور شخصية اليازورى الوزير الفاطمى على مسرح الأحداث ، تلك الشخصية التى استطاعت أن تصل إلى منصب الوزارة ، وأن يقبض بيده على مقاليد الأمور ، إذ كان وزيراً وقاضياً للقضاة ومقدماً على الدعاة ، وهذا ما لم يحدث لأحد من قبله كما يقول ابن ظافر(٧٢) .

تولى اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢ هـ(٧٣) وذلك بعد محاولات ذكية فى التقرب من أم المستنصر حتى وثقت به واستطاع أن يصل إلى هذا المنصب وأن تطلق عليه الكثير من الألقاب ، يقول المقريزى « ولقب بالوزير الأجل المكين، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين ، وقد بلغ من مكانته وعظم نفوذه أن طلب منه الخليفة المستنصر الفاطمى أن ينقش إسمه معه على السكة فكان يكتب عليها :

ضربت فى دولة آل الهدى   من آل طه وآل ياسين

هذه المكانة والمنزلة الرفيعة فى البلاط الفاطمى جعلت اليازورى لا يقبل اللهجة التى خاطبه بها المعز بن باديس ، ويبدو أنه برغم العداء الشديد بين الزيريين فى القيروان وبين الفاطميين فى مصر ، إلا أنه كانت هناك مكاتبات تحدث بين الطرفين ومن ثم وجدنا المعز بن باديس يحاول التقليل من شأن الوزير الفاطمى حين كتب إليه واصفاً إياه « بصنيعته » بدلا من أن يصفه « بعبده »(٧٦) كما جرت العادة بذلك ، وقد أحدث هذا الخطاب أثراً سيئاً فى نفس الوزير مما دفعه إلى مقابلة أبى القاسم بن الأخوة ممثل ابن باديس بالقاهرة وحمله رسالة عتاب ولوم يقول المقريزى « فاستدعى الوزير أبا القاسم بن الأخوة وكيل بن باديس بمصر وعتب صاحبه عنده وقال : أظن معزاً ينقصنى عن تقدمى إذا لم أكن من أهل صناعة الكتابة . وإن لم أكن أوفى منهم فما أنا دونهم ، ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب »(٧٧) ، هذا العتاب من جانب اليازورى لم يجد استجابة لدى المعز ابن باديس بل إن عيـــون اليازورى فى بلاط ابن باديس نقلت ما قاله ابن باديس فى رده على الرسالة : ما الذى يريد منى هذا الفلاح ، لا كنت عبده ولا كان ، هذا لا يكون أبداً وما كتبت إليه فسكثير(٧٨) ، وقد حاول اليازورى من جانبه استخدام سلاح التهديد والاغتيال حتى يمنع المعز من الاستمرار فى استهزائه وسخريته وعداوته ، يقول المقريزى « فدس إليه الوزير من تلطف فى أخذ سكين دواته فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة وقال له : كنت أظن بصاحبك أن الذى حمله على ما كان منه ثورة الشبيبة وقلة خبره بما تقضى به الأقدار ، وإنه إذا نبه تنبه ، فإذا الجهل مستول عليه ، وظنه أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه والوصول إليه بما يكره ، وقد تلطفنا فى أخذ سكين دواته وها هى ذى فأنفذها إليه

وأعلمه ، أنا كما تلطفنا فى أخذها أنا نتلطف فى ذبحه بها ، ودفعها إليه فكتب ابن الأخوة بذلك ، فازداد شراً وبطراً فدس عليه من أخذ نعله ، وكان يمشى فى الأحذية السندية فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة وقال له: أكتب إلى هذا البربرى الأحمق وقل إن عقلت وأحسنت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه تجرى على عادته فى القول القبيح »(٧٩) .

ومن هذا النص نستنتج إخفاق اليازورى فى منع المعز بن باديس من الاستمرار فى عدائه له فضلا عن السخرية منه والاستهزاء به ، ومن ثم بدأ يفكر فى اتخاذ خطوة أكثر حسما وقمعاً ، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن الخليفة الفاطمى لم يتخذ إجراء حاسما ضد ابن باديس وما قام به من عداء سافر ضد الشيعة والمذهب الشيعى فى أفريقية ولعنه للخلفاء الفاطميين على منابر مدن الدولة الزيرية فضلا عن تقربه الظاهر للخلافة العباسية ، كل هذه العوامل مجتمعة دفعت الوزير الفاطمى إلى اتخاذ إجراء جديد .

ولم يكن هذا الاجراء سوى تشجيع القبائل الهلالية على التوجه إلى القيروان وإطلاق العنان لها فى التدمير والتخريب وامتلاك كل ما يقع تحت سيطرتها . وهو بذلك يحقق عدة أهداف فمن الناحية الشخصية سوف يحقق انتقامه من المعز بن باديس ودولته حين يواجه هذه الجموع الكبيرة والمعروفة بوحشيتها وقسوتها والأثر المدمر الذى سوف تتركه هذه الجموع فى المغرب الأدنى ، ومن الناحية الرسمية فهو انتقام للدولة الفاطمية من المعز بن باديس تابع الأمس والعدو الآن . ومن ناحية أخرى فإن هذا الاجراء لن يكلف الدولة ما تكلفه الجيوش عادة عند خروجها للغزو فضلا عن التخلص من هذه القبائل الهلالية ذاتها إذ أنها كانت تشكل مصدر إزعاج وقلق للسلطة الحاكمة فى القاهرة .

وقد أشار اليازوري بهذه الفكرة على الخليفة المستنصر الذى استحسنها ،

ومن ثم بدأ التنفيذ وأخذ اليازورى يعاونه أحد أمراء الدولة وهو الوزير مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم ابن دينار العقيلى فى الإصلاح بين قبائل زغبة ورياح وغيرها من القبائل ، وحملت الأموال إلى مشايخ القبائل وفرضوا لكل عربى منهم ديناراً وبعيراً(٨٠) ، وكان الأمر صريحا لهؤلاء الأعراب بامتلاك كل ما يستولون عليه يقول ابن خلدون « وقال لهم : قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى الآبق فلا تفتقرون»(٨١) وفى نفس الوقت بعث برسالة إلى المعز بن باديس تحمل فى طياتها نذر الخطر والشر يقول فيها : فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا(٨٢) .

ويبدو أن هذا التصرف من جانب الخلافة الفاطمية تجاه العرب الهلالية صادف ترحيبا وقبولا حسنا إذ انطلقوا لتحقيق أطماعهم ومآربهم فى هذه المنطقة ، وكان النجاح الذى حققوه دافعا لإخوانهم فى مصر على إعلان رغبتهم فى الانضمام إلى إخوانهم وأبناء عمومتهم من الأعراب المشاركة فى المكاسب الجديدة ، ومن ثم وجـــدنا الخلافة الفاطمية تحاول تعويض ما أنفقته من قبل على تلك الجموع وذلك بفرض رسوم على كل من يرغب فى العبور والاتجاه غربا إلى إفريقية يقول ابن أبى دينار « فلما وصلوا إلى أفريقية عاثوا فيها كيف شاءوا ، وملئت أيديهم من النهب فتسامعت بنو عمهم بذلك فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم من ذلك إلا أن يعطوه شيئا من أموالهم فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبنى عمهم »(٨٣) .

سارت القبائل العربية متجهة نحو غايتها فى السلب والنهب ووصلت مدينة برقة ولم تجد كبير عناء فى الاستيلاء عليها إذ أن كثيرا من سكانها من قبائل زناتة قد هلكوا فى حروبهم ضـــد المعز ، ومن ثم صارت برقة وما حولها لقمة سائغة للعرب الهلالية(٨٤) ، وبدأت القبائل تتقاسم المناطق

الشرقية بينما استأثرت بعض قبائل بنى هلال بالمناطق الغربية، وانجهت جموع دياب وعرف وزغب وبقية بطون هلال إلى إفريقية يدمرون كل شيء كمدن إجدابية وسرت وغيرها من المدن والقرى(٨٥) .

وفى محاولة من جانب المعز بن باديس لصد ذلك الزحف الكبير حاول استمالة أحد زعماء قبائل رياح وهو مؤنس بن يحيى الرياحى الذى أقبل على لقاء المعز فوجد منه التكريم والترحيب كما أنه زوجه ابنته رغبة فى توطيد العلاقة بينهما ، وتشير بعض الروايات إلى أن المعز بن باديس عرض على مؤنس أن يمده بإخوانه من أبناء القبائل العربية لاستخدامهم كجند له بدلا من جند صنهاجة لعدم ثقته بهم ، لكن هذا العرض لم يجد استجابة لدى مؤنس الرياحى وبين له أن ذلك ضد طبيعة هؤلاء العرب إذ أنهم ميالون للفوضى وعدم التقيد بأوامر ونظام معين(٨٦) .

وهذه الرواية تحمل فى طياتها بذور الشك إذ كيف يستعين المعز ابن باديس بأعدائه الذين انطلقوا من مصر للقضاء على دولته ؟! وكيف يأمن لهم بعد أن بلغه ما فعله هؤلاء الأعراب بالمناطق التى حلوا بها ؟! ليس هناك تفسير لصحة هذه الروايات إلا محاولة يائسة من جانب المعز بن باديس فى احتواء هذه الجموع والهيمنة عليها ومن ثم إخضاعها لسيطرته ونفوذه

ويبدو أن هذه الجموع بعد أن استولت على برقة وطرابلس بدأت تخطط لتحركاتها المقبلة وكان الهدف الذى يسمون إليه فى هذه المرحلة هو الاستيلاء على القيروان وقد ظهرت خطتهم واضحة فى ذلك الحوار الذى دار بين مؤنس المرداسى وبين رؤسائهم والتى أوردها ابن الأثير بقوله «وكانت عرب زغبة قد ملكت مدينة طرابلس سنة ست وأربعين وأربعمائة فتتابعت رياح والاثبج وبنو عدى إلى إفريقية ، وقطعوا السبيل وعاثوا فى الأرض وأرادوا الوصول إلى القيروان فقال مؤنس بن يحيى المرداسى: ليس المبادرة

عندى رأى ، فقالوا : كيف تحب أن تصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه؟ قالوا : لا نقدر على ذلك، قال : فهكذا القيروان ، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبق إلا القيروان فخذوها حينئذ . فقالوا : إنك لشيخ العرب وأيدها وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع أمراً دونك »(٨٧) وهكذا أوضح مؤنس الخطة المثلى فى الاستيلاء على القيروان وذلك بتخريب ما حولها وبذلك يسهل الاستيلاء عليها .

ويبدو أن المعز بن باديس لم يدرك منذ اللحظة الأولى مدى خطورة هذه الجموع والأضرار التى ستحدثها فى المنطقة واكتفى بتكريم أمراء العرب والتودد إليهم(٨٨) ولم يتخذ الأمر عدته . ومن ثم سار العرب الهلالية فى تنفيذ مخططهم من قطع للطرق وتدمير للقرى والمدن وإشاعة الفوضى والخراب فى كل مكان يحلون به حتى ضج الناس بالشكوى وعلت صرخاتهم ونزل بهم من البلاء مالم يروه من قبل(٨٩) .

وإزاء هذا الخطر وجدنا المعز يجهز قواته من زناتة وصنهاجة وعبيده وأتباعه حتى بلغ تعداد جنده ثلاثين ألف مقاتل ، وكان اللقاء بينه وبين جموع العرب الهلالية ، وبرغم قلة جند العرب الهلالية والذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف فارس(٩٠) ، إلا أن الهزيمة حلت بالمعز وجنوده وقتل الكثير من جنوده . وكانت الهزيمة نتيجة طبيعية لجيش يحمل بين جوانبه عوامل الانكسار ، فقبائل زناتة لم تنس أحقادها بالأمس وما فعله المعز بمضاربها وأفرادها ، أما قبائل صنهاجة فقد فر أفرادها من أرض المعركة لإحراج المعز الذى اعتمد على العبيد واستند إليهم فى حكمه ، وإشعاره بمدى أهمية قبائل صنهاجة بالنسبة لحكمه(٩١) يضاف إلى ذلك انضمام العرب بجيش المعز إلى إخوانهم العرب الهلالية بحكم العصبية والنسب(٩٢) ولم يثبت معه فى أرض المعركة إلا العبيد وحرسه الخاص أولئك الذين دافعوا دفاعاً جيداً عن المعز وأنقذوه من القتل واستطاع الدخول إلى القيروان بعد أن ترك

معسكره وغنم العرب الهلالية مغانم كثيرة يشير إليها ابن عذارى بقوله « ودخل العرب معسكر المعز السلطان ، فحازوه وفيه من الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والأثاث والخف والكراع ما لا يعلم عدده إلا الله ، وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفاً . ومن البغال مالا يحصيه قول فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه »(٩٣) .

هذه الهزيمة الشنعاء التي حلت بمعسكر المعز بن باديس لم تمنعه من تكرار محاولة صد الأعراب وطردهم من بلاده ، إلا أن الحظ خانه ولم يحقق نصراً ، ومن ثم لجأ إلى سلاح آخر وهو مهادنتهم والتقرب إليهم ، لذا وجدناه يسمح لهؤلاء الأعراب الذين اتخذوا من أرباض القيروان مرتعاً خصباً لهم ، سمح لهم بدخول المدينة للشراء والبيع ، وهذه الخطوة الطيبة من جانب المعز بن باديس لم تثمر النتيجة المرجوة منها إذ دخل العرب الهلالية مدينة القيروان ، وأساءوا إلى سكان المدينة مما أحدث شغبا واضطرابا بالمدينة(٩٤) .

وفي محاولة يائسة من جانب المعز في حماية القيروان ، أدار عليها سوراً سنة ٤٤٦ هـ وفي نفس الوقت أمر السكان من الأطفال والنساء والشيوخ بالانتقال منها إلى المهدية — المدينة الحصينة — حتى يجدوا في ظلها الأمن والحماية(٩٥) ، إلا أن هذه المحاولات اليائسة لم تمنع القيروان من مصيرها المحتوم ، إذ أن العرب كانت تقاتل بوحشية ولم ترحم طفلا ولا إمرأة وقد أعطانا ابن عذارى وصفا بشعا للأعمال التي ارتكبها العرب في ضواحي القيروان يقول « قال ابن شرف : أخبرني من أثق به ، قال : خرجت من القيروان وسرت ليلا ، فكنت أكمن النهار ، فلم أمر بقرية إلا وقد سحقت وأكلت ، أهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكي ، جميعهم جوعا وبرداً ، وانقطع السير عن القيروان وتعطلت الأسواق وأمسك العرب

جميع من أسروه ، فلم يطلقوا أحداً إلا بالفداء مثل أسرى الروم ، وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم »(٩٦) .

وبانتقال المعز بن باديس إلى المهدية ومعه جنوده وحرسه أصبحت القيروان تحت رحمة العرب الهلاليين الذين واصلوا الإغارة على ضواحى القيروان وأبوابها لعلهم ينفذون إليها ، وأما من بقى داخل المدينة فكان يدافع عن أبوابها دفاع المستميت ، دفعا للمصير المحتوم .

وقد أعطانا ابن عذارى تصويراً دقيقا للحالة السيئة التى وصل إليها المدافعون عن القيروان من قلة فى السلاح والعتاد يقابلها فى الجانب الآخر وفرة فى السلاح والعتاد ، فضلا عن رغبات جامحة فى السلب والنهب يقول ابن عذارى « وذلك أن العرب دفعت إلى هذا الباب (باب تونس) فخرج إليهم العامة ، منهم بسلاح ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب ، فحملت عليهم فرسان العرب وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم فتساقطوا على وجوههم وجنوبهم وسطحوهم من حد أفران الآجر إلى هذا الباب ، ولم يبق منهم إلا من حصنه أجله ، ولم يتركوا على حى ولا ميت خرقة تواريه ، وخرج أهل القتيل عند انصراف العرب ، فرفعوا قتلاهم ، فقامت النوائح والنوادب بكل جهة ومكان من أزقة القيروان ، تتصدع لمنظرها وسماعها الجبال ، وبقى خلق من الغرباء فى المقتلة وجرح من الناس خلق كثير ، ورأى الناس ما أذهلهم من قبيح تلك الجراحات فتفتتت الأكباد وذابت القلوب والأجساد ، لبنيات تسودن وجوههن وحلقن رؤوسهن على آبائهن واخوانهم فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب ، ولم ير الناس مثله فى سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار »(٩٧) .

وظلت المدينة تعانى من الهجمات المتكررة حتى سقطت فى سنة ٤٤٩ هـ ودخلها الأعراب يعملون فيها سيوفهم ورماحهم ، ويخربون بيوتها ويهدمون مبانيها ويستولون على كل ما يقع تحت أيديهم(٩٨) .

وهكذا سقطت مدينة القيروان ، تلك المدينة العريقة التى اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠ﻫ لتكون القاعدة والمنطلق لنشر الإسلام ، واستطاعت المدينة فى فترة وجيزة أن تلعب دورها الحضارى فى نشر الإسلام وإرساء قواعد الحضارة العربية، وقصدها العلماء من كل مكان ، وأضاءت بين جنباتها مشاعل العلم والمعرفة طيلة أربعة قرون .

ومن ناحية أخرى فقد رحبت الخلافة الفاطمية فى القاهرة بتلك النتائج الطيبة التى حققها العرب الهلاليون بإفريقية ، وكانت المراسلات لا تنقطع بين الهلاليين فى إفريقية وبين الخلافة الفاطمية ، يخبرونهم بما يحرزونه من نصر ، والخسائر والهزائم التى حلت بابن باديس(٩٩) ، يضاف إلى ذلك أن بعض ذخائر وتحف ابن باديس وصلت إلى القاهرة ، واجتمع الناس لمشاهدتها كرمز لانتصار الخلافة الفاطمية على أعدائها وعلى من تحدثه نفسه بمعاداتها والخروج عليها ، يقول المقريزى « فخربت القيروان حينئذ إلى اليوم . . ووصل كثير مما نهب من قصور بنى باديس من الأسلحة والعدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة ، فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس ، واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال »(١٠٠) .

ولم يمكث المعز بن باديس بعد سقوط القيروان والكثير من مدن دولته ، إذ توفى سنة ٤٥٣ ﻫ بالمهدية بعد أن بذل الكثير فى سبيل الحفاظ على دولته .

وباستعراض ما أحدثه الغزو الهلالى بالمنطقة ، نجد أن هذا الغزو ترك بصمات واضحة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويمكننا أن نجملها فيما يلى :

أولا : الناحية السياسية :

أن المغرب الأدنى الذى كانت تجمعه وحـــدة واحدة ويخضع لحكم الزيريين ، مزقه العرب الهلاليون إلى إقطاعات ومناطق تتحكم فيها القبائل الغازية بعد أن اقتسمت المناطق فيما بينها ، وهذا يعنى انهيار الحكم الزيرى للمنطقة ، وبالرغم من المقاومة الشديدة التى أبداها المعز بن باديس ، إلا أنه سقط نهائياً تحت ضربات الهلاليين .

وأصبح العرب يشكلون قوة عسكرية لها خطرها ، تسعى وراء مصالحها وأهدافها ، ومن ثم وجدنا القبائل العربية تتحالف مع أكثر من جهة تحقيقاً لأطماعها ، فوجدناهم يقاتلون فى صف تميم بن المعز بن باديس الذى خلف والده فى حكم ما تبقى من الدولة الزيرية ، ووجدناهم يحاربون ضد أحد الخارجين على تميم وهو حمو بن مليك وهذا بدوره استعان بالعرب الهلالية ضد تميم ابن المعز ، يقول ابن الأثير « فى هذه السنة — سنة ٤٥٥ هـ — خالف حمو ابن مليك ، صاحب مدينة صفاقس بأفريقية ، على الأمير تميم بن المعز بن باديس ، فجمع أصحابه واستعان بالعرب وسار إلى المهدية فسمع تميم الخبر ، فسار إليه بعساكر ومعه أيضاً طائفة من العرب من زغبة ورياح ، ووصل حمو إلى سلقطة ، والتقى الفريقان بها ، وكانت بينهما حرب شديدة فانهزم حمو ومن معه ، وأخذتهم السيوف ، فقتل أكثر حماته وأصحابه ونجا بنفسه وتفرقت رجاله ، وعاد تميم مظفراً منصورا »(١٠١) .

وهكذا حاربت القبائل الهلالية بعضها البعض ، واعتقد أن مصالحها المادية هى التى كانت تحرك خطواتها .

وامتد تأثيرهم السياسى حتى وصل إلى المغرب الأوسط ، ووجدنا أمراء بنى حماد يدفعون خطرهم وأذاهم بإعطائهم نصف غلات البلاد وهو مقدار كبير ، وهذا يعنى أنهم كانوا يقتسمون ثروات البلاد ، يقول المراكشى

« وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ، فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقى أيامه ، وأيام ابنه الملقب بالعزيز ، وأيام يحيى »(١٠٢) ولاشك أن هذا الموقف من جانب بنى حماد يعنى عدم قدرتهم على صـــد هذه القبائل والوقوف ضدها .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى سنة ٥٤١ هـ ، وجدنا عبد المؤمن بن على ، خليفة الموحدين يخوض الكثير من المعارك ضد العرب الهلاليين فى المغربين الأدنى والأوسط باعتبارهم يشكلون خطراً على ممتلكات دولة الموحدين التى امتدت حتى طرابلس شرقاً . وكانت أولى هزائمهم أمامه حين توجه إلى المغرب الأوسط ، وبعد استيلائه على بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م . دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم ونقل نسائهم وأبنائهم إلى مراكش(١٠٣) .

وكان الصدام الثانى حين توجه إلى أفريقية وبعد استيلائه على المهدية دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم سنة ٥٥٥ هـ ، ومن ثم نقل مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى العاصمة وعاملهم معاملة حسنة ، مما دفعت كثيراً من العرب الفارين إلى اللحاق بأسرهم بالعاصمة(١٠٤) ويبدو أن أعداد العرب التى رجع بها الخليفة عبد المؤمن كانت كبيرة ، حتى أن ابن صاحب الصلاة عبر عن ذلك بقوله « وقد استاق - أى الخليفة عبد المؤمن - فى أتباعه من العرب من رياح وبنى جشم وبنى عدى من بنى هلال وقبائلهم مايضيق بهم الفضاء على عدد الذباب وعدد الحصى »(١٠٥) وفى رواية أخرى أنه نقل من كل قبيلة ألفاً بعيالاتهم وأبنائهم(١٠٦) .

وتبدو أهمية هذه الخطوة من جانب الخليفة عبد المؤمن بن على فى إخضاع العرب الهلاليين وتهجيرهم إلى المغرب الأقصى ، أنه اتخذهم كوسيلة ضغط

على قبائل البربر فى تعيين ابنه محمداً ولياً للعهد ، فالخليفة عبد المؤمن لم تكن تسنده عصبية قبلية فى حكمه لتلك الامبراطورية الواسعة ، لذا وجدناه بعد أن وقع الاختيار عليه يستدعى قبيلة كومية التى ينتمى إليها للمجىء إلى العاصمة مراكش ليستعين بهم ويعتمد عليهم . وفى نفس الوقت وجد عبد المؤمن فى عنصر العرب الهلالية قوة مؤثرة يمكنه الاستعانة بها فى تحقيق أهدافه والتأثير فى الموحدين لتعيين ابنه محمداً ولياً للعهد .

وقد سبق هذه الخطوة محاولات الخليفة عقد صلة مودة بين ابنه محمد المرشح لولاية العهد وبين زعماء القبائل العربيـــة ، حين قام محمد بإرسال الخطابات إليهم يخبرهم فيها أن من أسر من أبنائهم ونسائهم تحت الرعاية والصون ، حتى إذا تثبت زعماء العرب من ذلك شعروا بالمودة والتقدير لابن الخليفة(١٠٧) يقول النويرى « وأمر عبدالمؤمن ابنه محمد بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة وأمرهم أن يحضروا لتسليمهم إليهم ، فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة فأسر قلوبهم بذلك »(١٠٨) .

ثم اتبع ذلك بأن دس لزعماء العرب من يأمرهم بمطالبة الخليفة بتوليـة ابنه محمداً ولياً للعهد ، ومحاولة الخليفة الامتناع إكراماً لأبى حفص عمر ، ولكنه رضخ فى النهاية وخاصة بعد أن خلع أبو حفص نفســـه من ولاية العهد(١٠٩) ، حتى إذا تم تولية ابنـه محمداً وذلك بفضل مطالبة العرب ومساندتهم ، أرسل الخليفة رسائله إلى أنحاء دولته يعلن فيها الخطوات التى تمت ومبايعة ابنه بولاية العهد وقد جاء فيها « وكانت هذه العشائر العربيـــة الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل

إقليمها وذوى ألبابها وحلومها يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم ، ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطباتهم فى ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين ، فلما اتفق بحمد الله وصولهم فى هذه الوفادة ... صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه وأعلموا أن محمداً وفقه الله هو الذى ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه ورغبوا فى تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده فى توليتهم ومرادهم »(١١٠) .

وقد ترتب على ذلك الإجراء أن صارت خلافة الموحدين محصورة فى أبناء عبد المؤمن يتوارثونها فيما بينهم وكان ذلك بمساندة العرب الهلالية وتعضيدهم .

واستمر خلفاء الموحدين يوجهون جهدهم ونشاطهم العسكرى لإخضاع العرب الهلالية ونقلهم إلى المغرب الأقصى للاقامة فى العاصمة وبذلك يتيسر مراقبتهم ، ففى سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م تم ترحيل جماعة من عرب رياح إلى مراكش وذلك بعد انهزامهم أمام الموحدين فى قفصه(١١١) .

حتى إذا أقبلت سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م اندلعت نار الثورة بإفريقية وخاصة فى مدينة قفصة ، وتزعم الثورة بنوغانية ، وانضمت إليهم القبائل من جشم ورياح والأثبج مما اضطر معه الخليفة المنصور الموحدى إلى تجريد حملة كبيرة وخرج على رأسها وأخضع القبائل الثائرة ، ونقل الكثير من العرب إلى المغرب الأقصى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م(١٢٢) .

فلما تولى الناصر الموحدى ، صرف جزءاً كبيراً من طاقته وجهده فى فترة زمنية استغرقت ست سنوات منذ سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م إلى سنة

٦٠٢هـ / ١٢٠٥م فى سبيل القضاء على بنى غانية فى إفريقية ومن انضم إليهم من قبائل بنى هلال وقد نجح فى ذلك(١١٣) .

وهكذا شغل الموحدون بالمعارك ضد العرب الهلالية منذ أن تولى عبد المؤمن الخلافة حتى الناصر ، وترجع أهمية هذا النشاط العسكرى فى إقبال كثير من القبائل الهلالية للإقامة بالمغرب الأقصى ومشاركتها فى الأحداث السياسية والعسكرية بالمنطقة .

ومن ناحية أخرى فقد وجدناهم ينخرطون فى سلك الجندية ويشاركون جنود الموحدين حملاتهم المتكررة فى الأندلس وذلك لصد هجمات الفرنج ، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن استدعاهم وحثهم على المشاركة فى المعركة المرتقبة سنة ٥٦٦هـ وقد لبوا نداء الخليفة(١١٤) كذلك اشترط العرب على أنفسهم فى سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م الاشتراك فى الحملة الكبرى التى أعدها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمائة وثلاثين ألف فارس وراجل(١١٥) .

وحضر وفد كبير منهم فى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م من عرب سليم ورياح ووجوه أنجادهم للانضمام إلى جنود الخليفة المنصور الموحدى(١١٦).

حتى إذا كثرت العرب الهلالية بالمغرب الأقصى ، وأصاب الضعف والتخاذل ولاة الأمر من الموحدين ، تدخل العرب فى شئون الدولة وذلك منذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وقاموا بعزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، وكان بنو جابر والخلط أكثرهم كيداً للملوك(١١٧) .

ثانياً : الناحية الاقتصادية :

أما تأثير العرب الهلالية فى أقاليم المغرب المختلفة ، فمنذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب الأدنى ، لاحظنا الآثار المدمرة التى حلت بالمنطقة نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع فى هجمات متلاحقة أتلفت التقدم العمرانى الذى كانت تنعم به إفريقية(١١٨) ، يقول ابن خلدون « واضطرب أمر أفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها »(١١٩) .

وظلوا فترة يعيشون على السلب والنهب والإغارة على القرى والمدن حتى أخضع الموحدون معظم أقاليم المغرب المختلفة ، وأخضعوا هذه القبائل ، ونقلوا الكثير من أفرادهم إلى المغرب الأقصى ، بدأوا يجنحون إلى الاستقرار واشتغلوا بالرعى وهى المهنة التى نشأوا عليها والتى تتفق مع طبيعتهم البدوية، وبمرور الزمن اتجهوا إلى فلاحة الأرض وزراعتها ، وأثمر ذلك أن أخصب الأراضى الزراعية على المحيط الأطلسى هى الآن بأيدى أعقابهم(١٢٠).

ونتيجة استقرارهم واشتغالهم بالرعى والزراعة ، فرضت عليهم التزامات تجاه الدولة ، ومن هذه الالتزامات دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم فى الحملات العسكرية التى يقوم بها ولاة الأمر(١٢١) ، يقول ابن خلدون « وكان – أى بعض القبائل العربية – موطنهم بسيط تامسنا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية »(١٢٢) .

ومن ناحية أخرى فإنهم كانوا يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من جند الموحدين نتيجة انضمامهم لجيش الموحدين ، فقد أقطعهم ولاة الأمر بعض الأراضى(١٢٣) ، وذلك حتى يهيئوا لهم فرصة الاستقرار وعدم التحرك بالفتنة ، كما كان الخلفاء ينفقون عليهم النفقات الواسعة(١٢٤) بالإضافة إلى ذلك كانت توزع عليهم الأموال فى الحملات العسكرية المختلفة ، فحين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتمييز الجند سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م أمر للعرب

ورؤسائهم بالأموال والكساء والسلاح يقول ابن صاحب الصلاة «وأمر — أي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والرجل سبعة دنانير، وأخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائة دينار، وكسا جميعهم بالقباطى والقدص والغفاير والعمائم وأعطاهم السيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا من الرماح الطوال وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبـائلهم وأتباعهم ورجالهم»(١٢٥)، ويلاحظ من أقوال ابن صاحب الصلاة فى هذه المناسبة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد فضل جند العرب على جند الموحدين فى العطاء، فبينما أعطى للفارس الكامل من الموحدين عشرة دنانير، أعطى نظيره من العرب خمسة وعشرين ديناراً، ولغير الكامل من الموحدين ثمانية دنانير، أعطى نظيره سبعة دنانير، وهذا يشير إلى حرص الموحدين على استمالة العرب وكسب ودهم.

ثالثاً : النواحى الاجتماعية :

من الآثار البارزة التى أحدثها الغزو الهلالى للمغرب، إقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بسكان البلاد، وترتب على ذلك أن تعرب قسم من سكان البلاد نتيجة للتزاوج وصلات القرابة التى تمت على مر الأيام وامتزاج السلالتين بالدماء العربية(١٢٦) فإذا ما أخذنا الرواية التى تقدر عدد العرب الداخلين إلى الشمال الأفريقى بما يقرب من ربع مليون عربى(١٢٧) وأن هذا العدد أقام بالبلاد لتبين لنا مدى الأثر الجنسى على السكان الأصليين للبلاد، وقد بلغ المد العربى حداً أن وصلت قبائلهم إلى سواحل المحيط الأطلسى وامتزجت بقبائل المصامدة وصنهاجة جنوباً، ونتج عن ذلك أن بعض القبائل العربية تعربت كلية كقبيلة دكالة(١٢٨).

وقد ساعد على هذا الاختلاط والامتزاج التشابه بين حياة العرب الهلالية

وبعض قبائل البربر وخاصة التى تمتهن الرعى منها بالإضافة إلى اتفاقهم فى الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار وغير ذلك من الصفات(١٢٩) .

يضاف إلى التعريب الجنسى ، أيضاً التعريب اللغوى نتيجة للاختلاط والمعايشة اليومية ، ومن ثم تعلم البربر سكان البلاد الأصليين لغة الوافدين وهى اللغة العربية ، وانتشرت فى أجزاء كثيرة من البلاد . وبذلك ساعد العرب على نشر الثقافة العربية بالمنطقة بعد أن تعلم كثير من أهل البلاد اللغة العربية على يد هؤلاء الأعراب(١٣٠) .

وهكذا استطاع العـــرب الهلاليون أن يلعبوا دوراً خطيراً فى أقاليم المغرب منذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وظلوا منذ هذه الفترة يؤثرون فى تاريخ المنطقة ، وظهرت بصماتهم واضحة فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

الحواشى

(١) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٤٥

(٢) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٨ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ص٣٤١

(٣) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١٢٣ ونفس المؤلف : صبح الأعشى ص٣٤٥

(٤) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣

(٥) المقريزى : البيان والاعراب ص ١٢٦ ، د. عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٦٢

(٦) المقريزى : البيان والاعراب ص ٦٨

(٧) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣

(٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٤٣

(٩) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ١٠

(١٠) عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٢١

(١١) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٩

(١٢) الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٩ ص ١٢٩،ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ١٢،١٣

(١٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥٧٤

(١٤) نفس المرجع السابق جـ ٨ ص ٦٤٧

(١٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦

(١٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات

(١٧) نفس المرجعين ، ونفس الصفحات ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٤

(١٨) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ١١٥

(١٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٠

(٢٠) نفس المرجع السابق .

(٢١) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٩

(٢٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٦٦١

(٢٣) د. عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢

(٢٤) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٠٩

(٢٥) د . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٤٢ ، د. أحمد مختار : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢١٠

(٢٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٣٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٤٠

(٢٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ ٢ ص ٦٥٣

(٢٨) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٤٤

(٢٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٦

(٣٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٥٤

(٣١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣٢) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٥٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص١٢٤ ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٧ ، زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ١٠٩

(٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٧

(٣٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣

(٣٥) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤

(٣٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٩٤ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٦٨ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٢ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤٠

(٣٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٧٤

(٣٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٥

(٣٩) ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٢

(٤٠) الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤٠

(٤١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤٢٧

(٤٣) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٤٠

(٤٤) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٧٧ ، ص ٤٥٠ ، ص ٤٥٦

(٤٥) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٤٨ ، ص ٣٤٩

(٤٦) الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤١

(٤٧) د راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٨٤

(٤٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٤
(٤٩) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٦٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٥
(٥٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٥
(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٧٨
(٥٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٥٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣
(٥٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٣٢
(٥٥) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢
(٥٦) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٧٧
(٥٧) أبو بكر الدوادارى : كنز الدرر جـ١ ص ٣٣١
(٥٨) ابن الأثير : جـ٩ ص ٥٢١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٩٠ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٣ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٣٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢
(٥٩) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ١٤
(٦٠) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٠٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٦٠
(٦١) هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ص ٥٦
(٦٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٤
(٦٣) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٣٦
(٦٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٢٣
(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨
(٦٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٦
(٦٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٠
(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧٨
(٦٩) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٩
(٧٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٨٨
(٧١) الصفاقسى: نزهة الأنظار جـ١ ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ مخطوط .
(٧٢) ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ص ٧٨
(٧٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٠٢ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧٨ ، أبو بكر الدوادارى : كنز الدرر جـ٦ ص ٣٦٠
(٧٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٢
(٧٥) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٢

(٧٦) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٦٩
المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢
(٧٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢
(٧٨) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧٠
(٧٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٣
(٨٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول ص ٧٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٨ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ١ ص ٥٣١
(٨١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٤
(٨٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦
(٨٣) ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٤
(٨٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ١٤ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٨٨
(٨٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٧
(٨٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، ص ١٥
(٨٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٧
(٨٨) نفس المرجع السابق ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٦٢ ، ٦٣
(٨٩) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ١ ص ٥٣١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٧ ، أبى الفداء : المختصر جـ٢ ص ١٧٠
(٩٠) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٥٦٨ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٣
(٩١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٨
(٩٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥
(٩٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٩٠
(٩٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٩
(٩٥) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٣
(٩٦) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٩١
(٩٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٢
(٩٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٩ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٩٤ ، أبو الفداء : المختصر جـ ٢ ص ١٧١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٥ ، د . الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصورها ص ١٠٧

(٩٩) السجلات المستنصرية ص ٤٣ وما بعدها .
(١٠٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٥
(١٠١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٩
(١٠٢) المراكشى : المعجب ص ١٢٤ ، ص ٢٢٥
(١٠٣) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٤
(١٠٤) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٠ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، د . السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ص ٧٩٤

Nevill Barbour : Morrocco, p. 78.

(١٠٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٤٤٠
(١٠٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٦ ص ١٦١ ت الفيلالى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢
(١٠٧) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٨٦
(١٠٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣
(١٠٩) نفس المرجع السابق ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٤
(١١٠) مجموع رسائل موحدية ص ٥٧ ، ص ٥٨
(١١١) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ١ ص ١٢٠
(١١٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥٧ ت الفيلالى ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤
(١١٣) ابن عذارى : البيان جـ ٤ ص ١٩٤ طبعة تطوان
(١١٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص٣٦٨ ، ص ٤١١ ، ص ٤١٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٣٩
(١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .
(١١٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥١ ، ص ١٥٢ تطوان .
(١١٧) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٦
(١١٨) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٢٠
(١١٩) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص١٦
(١٢٠) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣
(١٢١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٧٠

Julien : Histoire de L'Afrique du Nord, 112.

(١٢٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣١
(١٢٣) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٤١ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٩٤

(١٢٤) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٤ ص ١٥٢ تطوان .

(١٢٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧

(١٢٦) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ٣١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص٣٠٧ ، د . عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ المنونى : العلوم والآداب ص ١٦ ، ص ١٧

J. Spencer : A History of Islam in West Africa, p. 19.

(١٢٧) J. P. Fage : An Introduction to the History of West Africa, p. 13.

(١٢٨) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧

(١٢٩) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٥

(١٣٠) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٦٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ، رابح بونار : المغرب العربى ص ٢٨٣

المصـــادر

١ - ابن أبي دينار القيرواني :
المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ط٢ عام ١٩٦٧م .

٢ - ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (٧٢٦هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس جزءان تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي
الرباط عام ١٩٣٦م .

٣ - ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) .
الكامل في التاريخ ١٣ جزء - بيروت عام ١٩٦٥م .

٤ - البراوي : د . راشد .
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين عام ١٩٤٨ النهضة المصرية .

٥ - بروفنسال : ليفي :
مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية عام ١٩٤١
رباط الفتح .

٦ - البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) .
معجم ما استعجم - ت مصطفى السقا - القاهرة عام ١٩٤٥م .

٧ - بنعبد الله : عبد العزيز :
مظاهر الحضارة المغربية جزءان عام ١٩٥٧ الدار البيضاء ، تاريخ
المغرب - جزءان - الدار البيضاء .

٨ - بونار : رابح :
المغرب العربي : تاريخه وثقافته عام ١٩٦٨ الجزائر .

٩ – البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجرى) :
أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين – نشر ليفى
بروفنسال سنة ١٩٢٨م باريس .

١٠ – ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – وزارة الثقافة .

١١ – الجنحانى : د . الحبيب :
القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى
تونس عام ١٩٦٨ م .

١٢ – حركات : إبراهيم :
المغرب عبر التاريخ ط١ عام ١٩٦٥ الدار البيضاء .

١٣ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) .
العبر وديوان المبتدأ .

١٤ – الدوادارى : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك :
كنز الدرر وجامع الغرر – الجزء السادس ت صلاح المنجد
١٩٦١ القاهرة .

١٥ – زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ترجمة د .
زكى محمد حسن ، د ، حسن أحمد محمود .

١٦ – السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (١٣١٥هـ) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق جعفر الناصرى
ومحمد الناصرى الدار البيضاء .

١٧ — د . السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير : العصر الإسلامى - القومية عام ١٩٦٦ .

١٨ — السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن :
حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ت محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٨ م .

١٩ — الشيرازى : هبة الله بن موسى بن داود (ت ٤٧٠ هـ) .
سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ت محمد كامل حسين دار الكاتب ١٩٤٩ م .

٢٠ — ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (نهاية القرن السادس الهجرى) .
تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين — السفر الثانى ت عبد الهادى التازى — بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ م .

٢١ — الصفاقسى : محمود بن سعيد مقديش :
نزهة الأنظار فى عجائب التواريخ والأخبار تونس عام ١٣٢١ هـ .

٢٢ — الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ) .
تاريخ الرسل والملوك ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢ دار المعارف.

٢٣ — ابن ظافر : جمال الدين على بن ظافر :
أخبار الدول المنقطعة تعقيب أندرية فريه عام ١٩٧٢ م .

٢٤ — العبادى : د . أحمد مختار :
سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد مجلد ٥ عام ١٩٥٧م .

٢٥ ـ ابن عذارى : المراكشى (كان حياً ٧١٢ هـ) .
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب طبعة بيروت عام ١٩٤٨
وطبعة تطوان ١٩٥٦ م .

٢٦ ـ أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل (٧٣٢ هـ) .
المختصر فى أخبار البشر .

٢٧ ـ القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى وزارة الثقافة عام ١٩٦٣ م .
قلائد الجمان فى التعريف بقبائل الزمان ت ابراهيم الأبيارى ١٩٦٢م.

٢٨ ـ الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت عام ٣٥٠ هـ) .
الولاة والقضاة ـ بيروت عام ١٩٠٨

٢٩ ـ ماجد : د . عبد المنعم .
السجلات المستنصرية تقديم وتحقيق دار الفكر عام ١٩٥٤ م .
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر عام ١٩٦٨ دار المعارف .

٣٠ ـ المراكشى : عبد الواحد (النصف الأول من القرن السابع الهجرى)
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٤٩

٣١ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ) .
المواعظ والاعتبار جزءان .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ـ الجزء الثانى ت الدكتور محمد
حلمى محمد أحمد ـ المجلس الأعلى .
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ت د . عبد المجيد
عابدين ط ١ عام ١٩٦١ عالم الكتب .

٢٢ – المنونى : محمد .
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان عام ١٩٥٠

٢٣ - الميلى : مبارك محمد .
تاريخ الجزائر فى القديم والحديث – الجزائرى عام ١٣٥٠ هـ .

٢٤ – النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
نهاية الأرب فى فنون الأدب – مخطوط دار الكتب .

٢٥ – ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى .
تتمة المختصر فى أخبار البشر ت أحمد رفعت البدراوى بيروت ١٩٧٠م

٢٦ – يونس : د . عبد الحميد .
الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى عام ١٩٦٥ – جامعة القاهرة .

المراجع الأجنبية

37. J. D, Fage : An Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1965.

38. J. Spancer, A history of Islam in West Africa, London 1963.

39. Julien, Ch-André : Histoire de L'Afrique du Nord, Paris 69.

40 Nevill Barbour : A Survey of North West Africa, London 62.